

عزيز فهمي

شاعر الحرية والشباب

١٩٥٢ - ١٩٠٩



هو الدكتور عزيز فهمي، من أعلام الحرية والأدب، وأبطال الوطنية والجهاد.

ولد سنة ١٩٠٩ بطنطا، وهو نجل الأستاذ عبد السلام فهمي جمعه رئيس مجلس النواب السابق ومن المجاهدين في الحركة الوطنية.

تلقي علومه الابتدائية والثانوية في المدرسة الابتدائية ثم في المدرسة الثانوية بطنطا، ثم انتقل إلى مدرسة الجيزة الثانوية حيث نال منها شهادة البكالوريا.

وبدت عليه منذ أن كان يتلقى التعليم الثانوية ميوله نحو الحرية والأدب والشعر وأنشأ وهو في مدرسة الجيزة الثانوية مجلة أدبية كان ينشر فيها آراءه وأشعاره.

وانتقل إلى التعليم العالي بالقاهرة، وجمع بين دراسة الحقوق في كلية الحقوق في كلية الحقوق ودراسة الأدب بالانتساب إلى كلية الآداب، فنال ليسانس الآداب سنة ١٩٣٢، والحقوق في سنة ١٩٣٣، وكانت رسالته التي قدمها إلى كلية الآداب في المقارنة في الشعر العربي بين العصر الأموي والعصر العباسي.

وكان طموحاً إلى الاستزادة من العلوم والآداب، فسار إلى باريس سنة ١٩٣٣، والتحق بجامعة وحصل منها سنة ١٩٣٨ على الدكتوراه في القانون وكان موضوع رسالته (الامتيازات الأجنبية في مصر ومعااهدة مونترو)، وكانت أول رسالة من مصر عن هذه المعاهدة، والتحق في الوقت نفسه بالسوربون للحصول على الدكتوراه في الأدب.

وقد شبت الحرب العالمية الثانية وهو في باريس، فعاد إلى مصر سنة ١٩٤٢ مملوءاً
وطنية وتضحية، مستكملاً دراساته العملية والأدبية.

وشغل منصب وكيل نيابة بالمحاكم المختلطة وقتنا قصيرا، ثم ضاق صدرا بالقيود
الحكومية، فاستقال مؤثرا العمل الحر، واشتغل بالمحاماة والصحافة، ووقف قلمه ولسانه، وقلبه
وجنانه، على الجهاد في سبيل الحرية، ومكافحة الاستعمار والطغيان والفساد.

كان أديباً شاعراً، وخطيباً مفوهاً، يجمع بين بلاغة العبارة وسلاسة الأسلوب، وقوة
التفكير، وغزارة المادة، والشجاعة الأبية، كان يدافع عن الحرية بقلمه ولسانه على صفحات
الجرائد، ولسانه فوق المنابر، وفي ساحات القضاء، وتحت قبة البرلمان.

وقد اعتقل وحقق معه غير مرة بتهمة العيب في الذات الملكية، أو التحريض على
الإخلال بالنظام، وكان في المحاماة يدافع عن الحرية وعن المتهمين في جرائم الرأي، ويهاجم
الطغيان والقلم السياسي والإجراءات التعسفية.

دخل البرلمان سنة ١٩٥٠ نائباً عن دائرة الجمالية بالقاهرة فكانت صفحته في دار النيابة
أقوى صفحات حياته التي قضاها في الكفاح الوطني، وعلى أنه انتخب مرشحاً من الوفد، فإنه لم
يتقيد بسياسة الحكومة الوفدية، وعارضها فيما يستحق المعارضة من تصرفاتها، و له في ذلك
المواقف المشرفة، وظهرت مواهبه البرلمانية كخطيب ومناضل برلماني من الطراز الرفيع، كان
يناضل عن الحرية في كل مناسب، وله المواقف المشهودة في معارضة نظام الاشتباه السياسي،
ومعارضة القانون المعدل لنظام مجلس الدولة وهو القانون الذي قدمته الحكومة الوفدية إلى
البرلمان للانتقاص من سلطات المجلس واستقلاله، ودوي صوته مجلجلا معارضا مشروعات
تقييد حرية الصحافة سنة ١٩٥١، وكان لمعارضته لهذه المشروعات دوي كبير وصدى استحسان
عظيم في الرأي العام، وبلغت مكانته الوطنية والبرلمانية ذروتها في معارضته لهذه المشروعات
حتى انتهت بسحبها من البرلمان، فكانت هذه النتيجة أعظم انتصار للفقيد في حياته السياسية
والوطنية.

ولما شبت معركة القتال بين الفدائيين والإنجليز عقب إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ في
أكتوبر سنة ١٩٥١، سافر إلى منطقة القنال، وساهم في حركات المقاومة ضد القوات البريطانية،
واستهدف للقتل غير مرة، فكان ذلك منه غاية البذل والتضحية.

وكانت وفاته يوم أول مايو سنة ١٩٥٢ في حادثة فاجعة، بل مأساة أليمة، إذ كان يعتزم
السفر إلى الفشن في صبيحة ذلك اليوم ليترافع أمام محكمتها في إحدى القضايا، وكان ينوي
السفر بالقطار، ولكن مواعيد السفر كانت قد تغيرت ابتداء من أول مايو لحلول الصيف، وقد

فاته أن يعرف الموعد الجديد للسفر، فلم يدرك قطار الصباح، فاستأجر سيارة ركبها قاصداً الفشن، وفيما هي تسير في الطريق الزراعي وقع لها قبل العياط ببضعة كيلو مترات حادث فجائي، قبلها رأساً على عقب وهوي بها في التزعة المحاذية للطريق، فمات الفقيد غريفاً، وكانت وفاته فجيعة للوطن وبنيه، إذ فقدوا بوفاته مجاهداً صادقاً بين المجاهدين الأحرار.

كانت وطنيته فوق حزبيته، وعقيدته أساس شخصيته، كان يرى في الحياة السياسية رسالة يؤديها، لا يبتغي منها لنفسه مغنماً ولا نفعاً، ولا يقصد إلا وجه الله والوطن، فلا غرو أن حزنتم الأمة لوفاته حزناً عظيماً.

اسلمي مصر

قال رحمه الله في قصيدة له سنة ١٩٣١ بعنوان (اسلمي مصر):

اسلمي مصر على مر القرون
لن تضامي أنت يا مهد الخلو
من تكن ليلاه مصر لا يهن
حسبك الله نصيراً ومعين
د وهذا بعض أشبال العرين
ساعة الذل ولو ذاق المنون

إلى أن قال:

لا رعاك الله يا عهداً مضى
محنة لا عهد للناس بها
عصفت بالحرث والنسل معا
ونضت سيفاً بتوكا كلما
دولة الحجاج أن قيست بها
عهد بغى وافتئات وأفون
جزع الصبر لها، والصابرون
وأعادت عهد كسرى ونرون
هب، ذقنا حديرة المنون
مثل في الرفق عند المنصفين

وهوى الأوطان للأحرار دين

إلى أن قال في تمجيد التضحية:

لا يضيع الله أجر المخلصين
ورضاء كل مستيق ضنين
ضيع الخير أصيل وهجين
هو عند الله إيمان ودين
ر، سل التاريخ عنها والمنون
وهوى الأوطان للأحرار دين
هل قسطنا ما علينا من ديون؟
ما تمتته على مصر السنين؟
فجر مصر فيه وضاء الجبين
في سهوب^(١) من تراها أم حزون
لم نقرب من أمانيك الشطون
ونعير بلواك العالمين

في يمين الله ما ضحيتمو
في هوى مصر يضحى عن حجا
لن يضيع العرف عند الله إن
هو عند الناس جود ووفوا
ولبانات الهوى شتى كنا
فهوى ليالي قيس متعة
هي ليلانا جميعا فانظروا
هل جمعنا من أفانين المنى
ليتني أحيى إلى يوم أرى
لا أبالي أعظمي بعده
لا سقاك النيل يا مصر إذا
ونعد مجداً ساليا غابرا

لا يخشى الموت

كان رحمه الله ينتبأ بأن لا يطول به العمر وأنه سيموت في ربيع الحياة، فكان يستعد للقاء الموت، ولا يهابه ولا يخشاه، وينشد الخلود.

قال في هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٣٣ بعنوان (لحن الموت):

سر هذا الكون أو عند المنون؟
حرت والله ولجت بي الظنون
وجهانا فوق جهل الأولين
أمم من قبل عاد و(أمون)
حيرة الساري بليل ذي دجون:
ما جهادي؟ ما مصيري بعد حين؟

أيها العراف هل عند النجوم
كاذب علمك ما لم تنبي
جهل السر أناس قبلنا
حملوا العبء وقد ناعت به
ولكم ساءلت نفسي حائرا
ما وجودي؟ ما سييلي؟ من أنا

(١) السهوب، كالسهول: الأراضي المستوية؛ والحزون؛ جمع حزن وهي الأرض الصلبة.

يا بني أمي لقد جد نوى
لا تقولوا مات في شوخ البا
ليس مني من بكائي فارعوا
وغدا يجمعني واد شطون^(١)
ذلك الحق تجلى واليقين
لن يرد الدمع محتوم المنون

لا تقولوا لبيته عاش! فقد
شاقني الخلد كما شاق القطا
فارق الأصفاد عصفور سجين
سلسبيل في عقاب وقرن^(٢)

يا قارئ الكف

وقال في هذا المعنى سنة ١٩٤٤ من قصيدة له بعنوان (يا قارئ الكف):

يا قارئ الكف ماذا أضمر القدر؟
وما اهتمامك باسمي؟ هبه عنثرة
ولا عليك إذا لم يصدق الخبر
عليك بالكف فاقرأ بين أسطرها
وهبه زيدا.. وجدي عمرو أو عمر
ماذا يدل عليه الخط والأثر؟

أطالع اليمين أن الخط متصل
وما الشيات^(٣) على جنبي ثمانية
وآية النحس أن الحد منبتتر؟
تبدو كوشم وتخفي حولها غرر؟
عندي كبارحة والشر ينتظر
خبر عن الفأل لا تجفل فسانحة

(١) الشطون: البعيد.

(٢) العقاب: جمع عقبة: طريق في الجبل وعر، وقرن، جمع قرن: القطعة من الجبل.

(٣) الشيان، جمع شية: العلامة.

هل أنسأ الله في عمري إلى أجل
وهل أبلغ أمالي؟ وأبعدها
هبنني ظفرت بأمالي على ظمأ
وهل أوسد حزنا حرة وحصى
أم هوجلا^(١) قذفا^(٢) تنبو براكبها
قفراء جرداء لم تكلأ حشائشها
أم تقدح النار من حولي فتطعمي
أم أن في مسبح الحيطان منقلبي
قل ما بدا لك واهرف غير مبدع
الحد كاللحد والأكفان واحدة
والمال كالعدم لولا أنه أمل
والسعد حال على الإنسان طائفة
لولا التشابه في الأقدار ما صدقت

يلح فيه على الهم والكبر؟
عندي كأقربها ناء ومحتضر
إذا ارتويت فماذا يعقب الظفر؟
في جوف هاوية أغوارها حجر
لا البيد عبدها يوماً ولا الحضر
إلا السواقي ولم يعلق بها مطر
حيا وأشوى بها أيان تستعر
يوم الرحيل إذا ناداني السفر^(٣)
فالرجم بالغيب- لو تدري- هو الهذر
ولا خيار لميت حين يدثر
إن الغنى إلى الأموال مفتقر
(وعند صفو الليالي يحدث الكدر)
عرافة الحي من توفى لها النذر

الشورى

قال من قصيدة له سنة ١٩٤٣:

بني مصر هذا الحق أبلج واضح
إذا شئتكم الشورى فذلك حكمها
تولي زمان الحاكمين بأمرهم
تولى زمان الفرد لا عاد عهد

وهذا صراط يستوي عنده القصد
وإن شئتكم الفوضى فليس لها حد
ولم يبق في الدنيا مسود ولا عبد
وبدل بالدستور سلطانه الفرد

(١) الهوجل: المغازة البعيدة لا علم بها.

(٢) القذف: البعيدة.

(٣) كأنه في هذا البيت كان يتنبأ بموته غرقاً، وقد توفى رحمه الله غريقاً سنة ١٩٥٢.

الضمير

وقال يصف الضمير من قصيدة له سنة ١٩٤٤:

صاحب وسنان من طول السهر
كلما غافلتَه في سكرة
فإذا كفرت عن وزر عفا
ليس ملموساً فتدري كنهه
وتواريه فيغضبي ساعة
ليس عقلاً أو شعوراً خالصاً
فهو عقل باطن أو ملهم
كم جرعت الصاب من تريقه
أنتما الدهر طريد أبوق
أينما وليت أحصي مرجئاً
يتراءى شاحباً أو إمعاً
وهو جبار عنيف تارة
وهو إعصار وريح صرصر
وهو كالبحر إذا البحر طغى
وهو كالسهم إذا السهم رمي
أمر ناه وعاص طيع
لا ينام العمر إلا ساعة
ساعة إن نمت عنها غافلا
أيها الساهر نم أو لا تنم
إن جنيناً فعليناً وزرنناً

إن تنم ناداك أو تنس أدكر
من أمانيك تجني أو عذر
وإذا عدت إلى إثم ثأر
وهو ما كتمت يدري ما تسر
ثم يستيقظ في لمح البصر
بل تراثا من شعور وفكر
وهو إحساس قديم مدخر
واستغت الشهد مما قد هصر
وغريم طارد أو منتصر
موعداً حتماً فأيان المفر؟
فهو كالظل إذا الظل انتشر
وهو أحياناً ضعيف يأتمر
وهو كالسيل إذا السيل انهمر
وهو كالموج إذا الموج انحسر
وهو كالسيف إذا السيف يتر
وهو الأمر وهو المزدجر
فتزقبها وبالغ في الحذر
عدت المخمور أو كالمحتضر
وترفق وتجاد واستعبر
وإذا نحن أنبنا فاعتذر

ومصر تناديهم وصوتي يردد

وقال في يونيو سنة ١٩٤٦ وهو معتقل في سجن الأجانب:

كفاك عزاء أنك اليوم أوحده
وقد يسكن الغمد الحسام المجرده

ويذهب عنك الحزن فيه تجلد
ويرهب منه الصوت وهو مصفد
ومازلت أدعوهم ومازلت أشهد
تلم بهم طورا وطورا تهدد
ومصر تتأديهم وصوتي يردد

يهون عذاب السجن والليل موحش
وقد يؤسر الليث المنيع عرينه
وأهبت بقومي أن يذودوا عن الحمى
أهبت بقومي والخطوب زواحف
وأنذرت حتى بح صوتي ولم أزل

نذرت نفسي قربانا لفاديها

ومن قصيدة أخرى نظمها وهو في سجن الأجانب سنة ١٩٤٦:

وعاث غاصبها في أرض راعيها
يكاد لولا بقايا الصبر يرديها
ورضت نفسي على نسيان ماضيها
فشاب منها ومن عدوان ساليها
نذرت نفسي قربانا لفاديها

شكت إلى الله من عدوان أهليها
واحمر قلباه من يأس يصارعها
فزعت من غدها علما بحاضرها
وقفت قلبي عليها في شبيبته
لما أفقت من الماضي بلا أمل

وعزني الدمع حتى كدت أبكيها
دع عنك لومي فإن اللوم يغريها
وقد يغني لأوطار يرحيها
ولا زعمت جوادى مذاكيها
حتى يضيق بها صدري فأحكيها

نكرت مصر فهاجتني مواجعها
يا لائمي وأنا الجاني على كبدي
كل يغني ليشجي سامرا وهوى
ولي لي سامر فيها ولا وطر
وانما هي الآمي اكنمها

وبات قلبي أسيرا في مغانيها
وهمت في الأرض مسحورا بواديها
وراق وصفي كما راقت مجاليتها
إلا نكري غزالا في مراعيها

نزحت عنها فلم أعدل بها وطنا
وصنت شعري إلا عن مفاتنها
ورق شعري كما رقت جداولها
وما رأيت كناسا فيه جؤذره

عند اللقاء وأحياناً تدانيها
يبي السفينة من أولى موانيها
وقد تتسم ريحاً من نواحيها
فرحت أنثر دمعى. في ضواحيها
لما حلت رقيقاً من روايبها
وكيف أصليت ناراً من سواقبها!

لما رددت إليها رد لى أملى
وقد طويت إليها اليم واقتربت
فكاد يظفر قلبى من توثبه
وحال قلبى دموعاً عند ما أتأت
سجدت لله عرفاناً لنعمته
فكيف حالت حياتى عندها سقراً

أيدي الرماة فأها من أعاديها!
وكاد لولا يد الرحمن يصمىها
يا للجريمة من عدوان أسىها

جاري عليها صروف الدهر واختلفت
راشوا لها السهم مسموماً فشتتها
واثخنوها جارحاً في مقاتلها

إلى أن قال:

قبل الجلاء لعل (الوعد) يغيرها
من القيود و(شرط الحلف) يملها
ومصر صابرة والصبر يضنيها
والقيود أمرها والقيود ناهيها

فزعت من شرك يلقى غاصبها
وما الجلاء إذا شددت (١) بسلسلة
تشعب الرأي والأحزاب سادرة
وكيف تنهض من أسر يكبلها

(١) الإشارة هنا إلى مصر.

بني وطني أهبت بكم زماناً

وقال في نوفمبر سنة ١٩٤٦ يندد بالإنجليز على أثر الاعتداءات الدامية التي وقعت منهم في القاهرة والإسكندرية، ويدعو المواطنين إلى البذل والتضحية:

سلوا من سامها ^(١) هذا العذبا
سلوا جلادها تبت يدها
أما ينهاه عقل أو ضمير
ضلال أن يعاتب مستبد
وجهل أن يخاطب غير أهل
يصعر خده صافا وحمقا
وكم أسدت إليه وكم تجني
بأي جريرة وبأي عدل
ولولا مصر ما غنموا فلاة

ومن شرع الأسنة والحرايا
بأي شريعة فرض العقابا
يرد له المحجة والصوابا
و أولى بالمسود أن يعابا
فلا تحزن عليه إذا تغابى
ويوردها على ظمأ سرايا
ولم يحسب لعاقبة حسابا
تجرع مصر كأس النصر صابا؟
ولو مصر ما غلبوا ذبابا

سلوا (دنكرنك) هل نهضوا بعبء
سلوا (الصحراء) عنهم كيف طاروا
سلوا (العلمين) هل ثبتوا بأرض
فكيف تعاضموا بعد انكسار
سلوا (الميثاق) ^(٢) هل وأدوه صباحا
وكيف جرى على فمهم كذابا
وكيف استبدلوا شرعاً بشرع
كذلك تلذع الأفعى كريماً
وبين الناس رقط وابن أوي

وقد غنموا السلامة والإيابا
وهل تخذوا النعام لهم ركابا
وقد سبقوا مع العدو السحابا
وكيف تبدلوا أسداً غضابا
وهل نسجوا من الكفن الإهابا
وسال على سواعدهم خضابا
فأضحى الحق عنهم اغتصابا
جزاء صنيعة وتمد نابا
وذؤبان ومن غلب الذئابا

(١) يقصد الإنجليز.

(٢) ميثاق الأمم المتحدة.

إلى أن قال:

إذا نكأت حملناها عذابا
يشاطره الفجعة والمصابا
يروع ببطشه السبع السغابا
وإن سام الجياد حمي العربا
وأينع روضة وزكا ترابا
فضج النيل واجتاح الرhabا
ومن أضحت نفوسهم خرابا
مع الحلف المرافق والرقابا
إلى الرضوان واستبقوا الثوابا

ويا وطني فديتك من جراح
وهل يأسو الجريح سوى جريح
وكم من قسور ورد المنايا
إذا كرت عليه الخيل فرت
روي دمه ثراك ففاح مسكا
وأخر في (الجنوب) ثوي شهيدا
لحا الله الخوارج والمطايا
ولا كان للأولى ذهبوا فداء
وطوي للأولى ذهبوا فداء

فلما بح صوتي قيل هابا
لأسمعه الصدى عنكم جوابا

بني وطني أهبت زمانا
ولو نطق الجماد كما نطقنا